قراءات ومراجعات

مراجعة لكتاب

انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية*

تأليف: عبد الحميد أحمد أبو سليمان**

حسان عبد الله حسان ***

قليلة هي كتابات المسلمين في الحضارة الإسلامية. فمنذ زمن عبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ) ومُقدِّمته الشهيرة، وتصنيفه دورة الحضارة، وطرائق العمران البشري، ووسائله، وعوائقه، ونظمه؛ لم نجد إلا مالك بن نبي (1905-1973م) يكتب في مشكلات الحضارة الإسلامية، ويطرح تشخيصه حول انهيار الحضارة وسُبُل البناء والصعود، ويعرض لفكرة "مركزية الفكرة والإنسان" بوصفها أحد المقوِّمات الرئيسة في إعادة بنيان الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي المعاصر. وبالرغم من ذلك، فقد أهملت الأُمَّة هذين العلمين الكبيرين وكتاباتهما في الحضارة والعمران.

إنَّ مصطلح "الحضارة" يرتبط في وجدان المسلم بالحضور والشهادة على الناس. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ (البقرة: 143). ولهذا يحمل المسلم -في كل زمان ومكان- هذه المسؤولية بشروطها؛ أي حين تتوافر شروط الشهادة، التي أهمها:

1. الاستقلالية الفكرية والمنهجية للذات الشاهدة؛ فلا يُمكِن لأُمَّة أنْ تُمارِس فعل "الشهادة" وهي في حالة تبعية.

---

* أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية**، هرندن- فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2016م.

** كاتب ومُفكِّر إسلامي، أحد مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، من روّاد مشروع "إسلامية المعرفة"، له العديد من الكتابات التربوية والاجتماعية والفكرية.

*** أستاذ أصول التربية المساعد، جامعة دمياط/ مصر، من المهتمين بحركة الإصلاح المعرفي وتطبيقاتها التربوية، له عدَّة كتب ومقالات. البريد الإلكتروني: hassan_abdallah1970@hotmail.com

تم تسلم القراءة بتاريخ 2018/6/3م، وقُبلت للنشر بتاريخ 2018/8/26م.

2. امتلاك الحجة الحضارية، التي تُعَدُّ شرطاً أساسياً لقبول الشهادة، وتستلزم الحضور الحضاري والفعّالية الحضارية للذات الشاهدة؛ لأنَّ الغياب والسكون أو الجمود يؤدي إلى نقص في شروط الشهادة ورفضها.

3. العدل الحضاري؛ إذ إنَّ من متطلَّبات الشهادة أنْ يكون الشهود عدولاً. والعدل الحضاري يتطلَّب توافر القوَّة الحضارية للذات الشاهدة؛ فلا شهادة لضعيف، أو واهن.

4. البصيرة الحضارية التي تتطلَّب سلامة المنهجينِ: النظري والعملي للذات الشاهدة، حتى يثبت صدق شهادتها؛ لأنَّ الكذب ملازم لغياب المنهج، أو مرضه.

وفي ظلِّ غياب الأُمَّة عن وظيفتها الحضورية الشهودية، أخذ عبد الحميد أبو سليمان في كتابه هذا يصل ما انقطع في تاريخ الأُمَّة من دراسات حضارية، ويجمع بعض الأفكار الغنية عن الخلدونيْنِ (عبد الرحمن بن خلدون، ومالك بن نبي)، في محاولةٍ لإيقاظ الأُمَّة، طارقاً عليها بطارق الحضارة لعلَّها تتدبَّر ما فاتها، وتلحق بما تأخَّرت عنه.

يقع الكتاب في 287 صفحة من القطع المتوسط، مُذيَّلةً بكشّاف أبجدي، وقد صدر عام 2016م عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وهو يتوزَّع على ستة فصول، إضافةً إلى مُقدِّمة وخاتمة، تناول الفصل الأول منها موضوع "القضية والجذور"، وعرض الرؤية المتعلِّقة بالأزمة الحضارية، وطبيعتها، والعوامل المُؤثِّرة فيها. وتطرَّق الفصل الثاني إلى أهم مظاهر الأزمة الحضارية، وحصرها في مظهرين رئيسين، هما: تشوُّهات وانحرافات في فكر الأُمَّة وثقافتها، والحصاد المُرُّ وآثار الانحرافات الفكرية في بناء الأُمَّة النفسي. أمّا الفصل الثالث فحمل عنوان: "الطفل قاعدة الانطلاق"، وتضمَّن نقداً لموقف حركات الإصلاح وقادة الفكر من مسألة "الطفولة" بسبب إهمالها في الخطاب الإصلاحي، أو ضعف هذا الاهتمام، أو تشوُّهه. وكان موضوع الفصل الرابع: "الحل الأساسي: بناء الطفولة"، فأكَّد فيه المؤلِّف أنَّ طريق الإصلاح ومواجهة التحديات لا يكون إلّا برعاية الطفولة وبنائها. وتناول الفصل الخامس قضية الأسرة المسلمة (الحاضنة الوجدانية الأساسية للطفولة)، وأسرار الشريعة في بناء الأسرة. وتضمَّن الفصل السادس خطة عمل الأُمَّة التربوي من حيث جبهات العمل ومساراته، وخطة "إسلامية المعرفة"، وتأصيل الفكر الإسلامي، وتجربة "إسلامية المعرفة" في إعداد الكوادر البديلة.

ويقوم الكتاب على فكرة مركزية هي أقرب إلى الرؤية النقدية لمسار حركة الإصلاح الحديث في الأُمَّة وعلاقتها بمشروع "الطفولة الإسلامية"، ويرى مؤلِّفه أنَّ فكرة "الطفولة" هي بُعْد غائب عن مشروعنا الحضاري، وأنَّ هذا البُعْد هو من أهم الأسباب التي حالت دون نجاح مشروع "الإصلاح الإسلامي"، وإحداث التغيير المطلوب في الأُمَّة؛ ذلك أنَّ التغيير يبدأ بالإنسان، والطفولة هي الركن الركين لبناء الإنسان، كما تشير البحوث التربوية والنفسية والاجتماعية، ويُؤكِّد الخبراء في هذا المجال.[1]

وفي ضوء هذه الفكرة المحورية، يُوضِّح المؤلِّف مسوِّغاته لطرح مشروعه ورؤيته التربوية في هذا الكتاب، ويُجمِلها في العناصر المستخلصة الآتية:[2]

– محاولة فهم غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي للطفل، ليكون هذا الفهم أساساً لإرساء طاقات المبادرة والإبداع في البناء النفسي والوجداني.

– محاولة معرفة الأبعاد الثقافية والفكرية التي أحدثت التشوُّه وهذا الغياب.

– معرفة المفاهيم والمنطلقات التي تُمكِّن الأُمَّة من استكمال هذا النقص.

– الإحساس بأولوية الحاجة إلى إعادة بناء النفسية المسلمة، واستعادة قدراتها وطاقتها الأخلاقية الحضارية الإبداعية؛ بُغْية إنجاح المشروع الإسلامي، وتحقيق أهدافه النبيلة.[3]

ثمَّ أشار المؤلِّف إلى وجود ثلاث أزمات رئيسة تعانيها الأُمَّة، هي: أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة الوجدان والتربية. وأكَّد أهمية التعامل الجاد مع هذه الأزمات، وأنَّه لا سبيل إلى تحقيق قدرة الأُمَّة على إطلاق طاقاتها، وتجديد بنائها، وبلوغ غاياتها السامية من دون ذلك، على أساسٍ من التوازن بين السياسي والفكري في جهود حركات الإصلاح؛ لتحقيق القدرة، وتحرير نفسية المسلم، وتفعيل وجدانه.

---

[1] أبو سليمان، **انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية**، مرجع سابق، ص13.

[2] المرجع السابق، ص13.

[3] المرجع السابق، ص20.

وقد أثمرت هذه الأزمات خللاً في التعامل مع مشكلة الطفولة في الأُمَّة، تمثَّلت أهم مظاهره في ما يأتي:[4]

1. تغييب البُعْد المعرفي الشمولي التحليلي الذي يتعلَّق بمعرفة السنن الإلهية في الطبائع النفسية والكونية، وفي تفاعُل عواملها المركَّبة رأسياً وأفقياً في الزمان والمكان. وهذه السنن الإلهية (القوانين الطبيعية) هي التي أشار إليها النبي ﷺ في الحديث الشريف: "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا."[5] أي إنَّ للتربية والتنشئة أُسساً نفسية هي سنن وقوانين إلهية، وإنَّ طرائق التعامل معها تُحدِّد نوعية البناء النفسي للفرد؛ فعلى أساسها تتبلور نوعية الفرد، ويتشكَّل معدنه وطاقاته (مثل: الشجاعة، والجبن، والأمانة، والخيانة، وما إلى ذلك)، وهي التي تُسخَّر اجتماعياً -في اتجاهٍ أو آخر- بحسب الرؤية الكونية الاجتماعية لكل أُمَّة ومجتمع.

2. غياب الخطاب النفسي العلمي التربوي السليم اللازم لبناء نفسية الطفل المسلم. وقد أدّى غياب هذا الخطاب إلى حدوث خلل في تكوين البُعْد النفسي الوجداني الإسلامي السليم لدى الطفل المسلم؛ ما جعله ينمو إنساناً بالغاً، مُفتقِداً دفعَ البُعْد الوجداني الفعّال اللازم لتحريك الطاقة، وبذْل الجهد، وتوفير الأداء الإيجابي الذي يُعَدُّ شرطاً أساسياً لامتلاك القدرة الفعّالة على مواجهة التحديات التي تعترض طريق الأُمَّة والمجتمع.

ويُمثِّل الكتاب دعوةً إلى المُتخصِّصين من المُفكِّرين والمُربّين لفتح حوار جادٍّ، يُناقِش طرائق العلاج، وكيفية تجديد السُّبُل إليها. "إنَّ المسؤولين عن هذا الأمر هم المُفكِّرون والمُربّون... والآباء والأُمهات... الذين عليهم النظر في أعماق كيان الأُمَّة الفكري والثقافي والتربوي؛ للتعرُّف على مكامن الداء فيها، ويُبصِّروا أبناءها وقيادتها بحقيقة أدواء النفوس، وتشوُّهات الفكر، وانحراف الممارسات، ويستكملوا للأُمَّة رسم معالم المنهج العلمي الفكري التربوي الذي يضع القدرة والمبادرة في يد أبنائها ومُفكِّريها ومُثقَّفيها، واعتماد مكامن طاقة الفطرة والعطاء والبذْل في نفوسهم أساساً لانطلاقتها."[6]

---

[4] المرجع السابق، ص18.

[5] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، دمشق-بيروت: دار ابن كثير، 2002م، كتاب: التفسير، باب: "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين"، حديث رقم4689 ص1160.

[6] أبو سليمان، **انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية**، مرجع سابق، ص15.

ويعتمد الكتاب مجموعة من المقولات المُؤسِّسة لبنائه الفكري، وهي مُوجَّهة إلى جمهوره المُستهدَف من الباحثين التربويين والمُفكِّرين المهتمين بالإصلاح التربوي في الأُمَّة. وقد جاءت هذه المقولات في صورة عناصر لمنهجيةٍ في البحث التربوي المُتعمِّق في دراسة النفس والسلوك الإنساني، وفي ما يأتي أهمها:

1. الشمولية وبناء الأولويات البحثية:

تُعَدُّ الشمولية في البحث الاجتماعي أمراً ضرورياً؛ لأنَّها تهدف إلى فهم الظواهر، وإدراك أسبابها الخفية. ولا شكَّ في أنَّ النظر الجزئي في مثل هذه المجالات مُعقَّدة التكوين، مُتعدِّدة الأسباب، يُضِلُّ الباحث في كثير من الأحيان، ويُخِلُّ بأوزان الظواهر ومواقعها وآثارها، ويبسطها بسطاً مُخِلّاً، تنتج عنه تصوُّرات غير حقيقية أو مُعبِّرة عن الحقائق الظاهرة.[7]

وتنعكس الشمولية على تصوُّر الباحث للظاهرة والعوامل المُؤثِّرة فيها، بحيث لا يترك عاملاً من دون رصد؛ لتكون ملاحظته موضوعية غير ناقصة، وتأتي أحكامه في الحكم على الظاهرة أقرب إلى الحقيقة. "فالبحث الشمولي التحليلي بطبيعة الحال لا يأخذ – دون دليل– بأحادية العوامل المُؤثِّرة في أيِّ ظاهرة اجتماعية، بل يرى أنَّ الأصل في التحليل هو تعدُّد هذه العوامل، وأنَّ من التبسيط المُخِلِّ الاعتماد الجزئي لأسباب ثقافية، أو عاطفية، أو رؤية انتقائية، أو خيار عشوائي –على عامل واحد بعينه– على مجموعة من العوامل والأسباب، مع تجاهُل ما عداها من الأسباب الموضوعية والمهمة المتعلِّقة بمختلف جوانب الظاهرة.[8]

2. منظومة الذات العقدية والفكرية:

تعتمد هذه المقولة على فكرة "المنظومة"؛ فكل عنصر ذري ينتظم في مجموعة أشمل، ينتمي إليها، ويستمد منها خصائصه ومظاهره. والمنظومة بدورها تُظهِر خصائصها في مكوِّناتها الفرعية، وهو ما يجب أنْ يُدرِكه الباحث في أثناء التعامُل مع الظواهر التربوية

[7] المرجع السابق، ص22.

[8] المرجع السابق، ص25.

والاجتماعية. "فكل شيء في الوجود هو منظومة system، بدءاً من الخلية إلى الذرة إلى المجرَّة. وكل منظومة لها خصائصها، وقواعد عملها، وحدود طاقتها، وإذا لم تراقب تلك الخصائص والقواعد والحدود فإنَّ المنظومة تتحطم وتنهار. والمثال الأقرب لذلك هو جسد الإنسان."[9]

وبالمثل، فإنَّ عوامل انهيار الأُمَّة تندرج أيضاً في هذا الوصف (المنظومة)، حيث تتشكَّل عوامل الانهيار في منظومة كبرى؛ سواء اتَّصل ذلك بالعوامل الداخلية، أو الخارجية التاريخية، أو المعاصرة، مُكوِّنةً لوحة الانهيار العام للأُمَّة. "فالأُمَّة اليوم في التقاء فكرها الضامر ونظامها المهترئ بفكر الأجنبي المُتاجِر بمؤسساته المتطورة المتجددة –وهي ما تزال إلى حدٍّ بعيد غير مُدرِكة بشكل علمي موضوعي طبيعة منظومة فكرها وخصوصيات كيانها– أصبحت مُنبهِرة بقدرة مناجزيها والغالبين على أمرها، ممّا حال بينها وبين أنْ تُدرِك طبيعة منظومة فكرهم، وخصوصيات كينونتهم."[10]

3. التربية والتغيير الاجتماعي:

تهدف هذه المقولة إلى وضع قضية الطفولة، ودور الفكر التربوي فيها –بوصفه منطلقاً أساسياً لتحقيق التغيير الاجتماعي– على مائدة الدراسة والفكر والنظر، وما يستتبع ذلك من قضايا تنقية الثقافة الإسلامية وتنقية مدخلاتها التربوية، واستكمال الفكر الإسلامي لأدواته المنهجية في دراسة السنن والطبائع والواقع في الزمان والمكان، وفي فهم النص والتاريخ، وإدراك ما يُقدِّمانه من توجيه ودروس وعبر، على نحوٍ يناسب الزمان والمكان.

وبوجه عام، يُمثِّل موضوعُ "الطفولة وإدراك دلالاتها العلمية النفسية" البُعْدَ الغائب الأساس في إحداث التغيير النفسي الجمعي الضروري لمواجهة التحديات؛ ذلك التغيير الذي هُمِّش حتى اليوم في مشروع "إصلاح الأُمَّة الحضاري"، وعوَّق –في رأينا– نجاح هذا المشروع في تحقيق أهدافه، وتجسيد غاياته، وتفجير كوامن الطاقة والبذْل والعطاء في النفس الإسلامية، وتزويدها بالقدرة على الإصلاح، والتطوير، والمبادرة، وإتقان الأداء.

[9] المرجع السابق، ص30.

[10] المرجع السابق، ص31.

إنَّ مهمة البحث هي إلقاء الضوء على هذا البُعْد الغائب، وتوضيح أبعاده وتفاعلاته مع بقية العوامل، ومعرفة السُّبُل العملية العلمية لاستكمال هذا النقص، وسدِّ هذه الثغرة؛ بُغْية التكامل مع ما يُبذَل من جهود لبناء مشروع "إصلاح الأُمَّة ونهضتها"، واستكمال أدواته؛ خدمةً للأُمَّة والإنسانية، وتجليةً لِهَدْي رسالة الإسلام في نظام القرية العالمية المعاصر.[11]

وفي ما يخصُّ عوامل الأزمة الحضارية وجذورها، فقد طرح أبو سليمان في هذا الشأن تساؤلات محورية عدَّة، أبرزها:

– ما الذي أصاب الأُمَّة؟

– كيف انحرفت مسيرتها؟

– كيف تَعوَّق فعل دفع روح الإسلام فيها حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من عجز وتخلُّف وضعف؟

– لماذا فشلت محاولات الإصلاح ومشروعات التغيير في استعادة عافية الأُمَّة وتعديل مسارها على مدار القرون السابقة؟

ثمَّ عزا ذلك إلى أربعة عوامل رئيسة، مثَّلَتْ إجابةً عن هذه الأسئلة:

1. ضعف الطاقة الإيمانية، والتراكم المادي العمراني:

إنَّ انحراف مسيرة الأُمَّة الإسلامية عن خطِّ الأداء الأمثل الذي رسمته تطبيقات الرسالة الإسلامية بعد انتهاء عهد الرسالة ودولة جيل الصحابة قد بدأ مُبكِّراً؛ ذلك أنَّ الناس جميعاً، والأجيال كافةً –بعد جيل النبوة والرسالة– أصبحوا متروكين لجهدهم في تمثُّل الرسالة، ولاجتهادهم في الاقتباس منها؛ كل جيل بحسب طاقة أفراده، ووَفق معطيات زمانهم ومكانهم وإمكاناتهم ومتغيرات أحوالهم وتحديات عصورهم. وكان هذا الأمر واضحاً في المسيرة التاريخية لرسالة الإسلام؛ إذ رأينا فيها التناسب العكسي –في تاريخ الأُمَّة– بين قوَّة دفع الرسالة ونوعية الأداء من ناحية، وتراكم معالم عمران الأُمَّة وتراثها ومظاهر الحضارة فيها من ناحية أُخرى.[12]

[11] المرجع السابق، ص33.

[12] المرجع السابق، ص37.

2. الانفصال بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية:

أدى ذلك الانفصال إلى بروز مجموعة من الظواهر المرضية التي أطلق عليها المؤلِّف اسم التشوُّهات، وحصرها في ستة تشوُّهات أساسية أصابت الشخصية المسلمة في مكامن بنائها وعمقها النفسي والتربوي، وهذه التشوُّهات هي:

أ. تشوُّه الرؤية الكلية:

إنَّ تشوُّه الرؤية الكونية الإسلامية التي تُشكِّل إطار فكر الأُمَّة وثقافتها يُعَدُّ أخطر التشوُّهات؛ إذ لم تعد هذه الرؤية كونية توحيدية شمولية إيجابية، تُقدِّم الدليل والهداية الكلية لفكر المسلم، وضميره، وعلاقاته، ونظمه.[13]

ب. التشوُّه المنهجي:

نجم هذا التشوُّه عن عزلة العلماء والمُفكِّرين وعزلهم، وهو يُمثِّل –في أحسن حالاته– تشوُّهاً معرفياً منهجياً، حوَّل الفكر الإسلامي إلى فكر نظري؛ فكر غارق في تأمُّلات نظرية مدرسية، لا تجد طريقها إلى الحياة الاجتماعية للأُمَّة بالتنقيب والملاحظة والقياس والتجريب؛ لأنَّ ذلك يتطلَّب ممارسةً وتطبيقاً. ويُمثِّل –في أسوأ حالاته– تشوُّهاً أدى إلى عقم منهجي خطير، جعل المعرفة عملية استظهار وتقليد ومحاكاة، يغيب فيها كل أثر فعّال لعنصري الزمان والمكان، ومعرفة سنن الطبائع في الخلائق والكائنات.[14]

ت. تشوُّه المفاهيم:

إنَّ أوَّل ما تُصاب به الأُمم في أطوار تراجعها الفكري والمعرفي والثقافي هو مفاهيمها، التي تتأثَّر قبل غيرها بعمليات الصراع الفكري والثقافي. وأهم الأمراض التي تعتري هذه المفاهيم هي الميوعة ثمَّ الغموض. فالميوعة تنشأ عن تساهُل الأُمَّة في مفاهيمها، وذلك باستعارة اسم أو مصطلح من نسق معرفي آخر، عن طريق القياس القائم على توهُّم التماثُل والتشابُه؛ لتتداوله مع مفاهيمها بوصفه مفهوماً مرادفاً مساوياً، أو بديلاً مترجماً. وقد تتناسى الأُمَّة خصوصيتها المعرفية، وتخلط بين ما هو مشترك إنساني (مثل:

[13] المرجع السابق، ص47.

[14] المرجع السابق، ص52.

العقليات، والطبيعيات، والتجريبيات) وما هو من الخصوصيات الملية، فتتساهل باستعارة المفاهيم من غيرها حتى تفقد خصوصيتها الملية والشرعية والمنهاجية المتعلِّقة بها.

ومن الأمور اللافتة أنَّ أدوات هذه المعارك الجديدة تتمثَّل في استخدام مصطلحات الأُمَّة نفسها، والتسلُّل والعبور من خلالها، ومحاولة إعطائها مدلولات جديدة، وتفريغها من مضمونها وتاريخها الثقافي ورصيدها في شعور الناس، وربطها بحوادث وأحداث جديدة، على طريقة المنعكس الشرطي؛ لتحويلها إلى مدلولات جديدة منفردة، تعدو على المدى البعيد على قيمها الدينية والثقافية، وتحاصرها بضروب من الكراهية، وبذلك تخرج الأُمَّة من ذاتها.[15]

ولذلك كان اهتمام المُفكِّرين والإصلاحيين منصباً على إعادة بناء هذه المفاهيم في سبيل إعادة تشكيل الهوية الإسلامية التي هي أساس البناء الحضاري ومداره. وفي ما يأتي أشكال العلل التي أصابت المفاهيم في البنية المعرفية الإسلامية:*

– تفريغ محتوى المفاهيم الإسلامية من مضامينها الأصلية، وملؤها بالمضمون الغربي المادي بما يحمله من تصوُّرات وأنساق فكرية ومعرفية مختلفة عن التصوُّرات الإسلامية.

– إعطاء المفاهيم الإسلامية مدلولات جديدة غير مدلولاتها الأصيلة في النسق الفكري الإسلامي، فيما يمكن تسميته عملية إحلال تتشابه تماماً مع عملية الاحتلال الكبرى للعالَم الإسلامي.

– استحضار مفاهيم من النموذج الغربي، ونقلها كاملةً؛ ما أثَّر في عملية الإبداع الإسلامي، وأبقى حالة الجمود على الموجود.

---

[15] حسنة، عمر عبيد (تقديم) في:

– شبار، سعيد. **المصطلح خيار لغوي– وسمة حضارية**، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، كتاب الأُمَّة، عدد78، 2000م، ص30.

* من الدراسات الرائدة في هذا الصدد دراسة السيد عمر: "بناء المفاهيم ودورها في نهضة الأُمَّة"، التي دارت حول تشخيص حالة المفاهيم في الوضعية المعاصرة لعالَمنا الإسلامي، وحالة تيه المفاهيم الحادثة في أُمَّتنا، وآليات العبث بالمفاهيم ودواعيه، وطرائق تبديد المفاهيم الإسلامية، إلى جانب طرح خبرة بحثية لبناء المفاهيم تطبيقاً على مفهوم "التزكية". انظر:

– عمر، السيد. **بناء المفاهيم ودورها في نهضة الأُمَّة**، الرياض: دار الهدى، 2014م.

ويُؤَكِّد علي شريعتي أهمية إعادة بناء المفاهيم في المشروع الحضاري الإسلامي؛ نظراً إلى ما تعرَّض له من غزو وهجوم غربي في إطار الاستراتيجية الثقافية التغريبية، لتفتيت البناء الفكري للعالَم الإسلامي، التي عَدَّها "أحد الوجوه المختلفة لهجوم ثقافة الغرب على ثقافتنا: مسخ وإزهاق روح الكثير من اصطلاحاتنا. حيث إنَّ اصطلاحاً أو كلمة ما تتضمَّن طراز عقيدتنا، وتنطوي على روح ورؤية ثقافتنا وقيمنا العقدية والمعنوية. ومن هنا، إذا أمكن مسخ أيٍّ من هذه المصطلحات وتدميرها، فسوف يموت بشكل طبيعي ما تنطوي عليه هذه المصطلحات من فكر وروح، ويدفن محمول الكلمة المعنوي."[16]

ومن المفاهيم التي تعرَّض لها أبو سليمان، وأصابها التشويه في رؤية المسلم: مفاهيم العبودية، والتوحيد، والتوكُّل، والتواكُل، والتزكية. وقد وجد أنَّ التشوُّهات التي أصابت الفكر الإسلامي والعقل المسلم نتيجة عزلة العلماء، وما نجم عن ذلك من عجز فكري وجمود وتوظيف لخطاب الترهيب؛ لإخماد روح المحاكمة والنقد؛ بُغْية إرغام العامة –بسبب العجز الفكري– على استسلام المتابعة والقبول؛ وجد أنَّها تُمثِّل تشوُّهاً للمفاهيم؛ لأنَّه ما كان ممكناً إخماد روح المحاكمة، واستسلام عامة الأُمَّة إلّا بامتداد التشويه إلى كثير من المفاهيم الإسلامية الأساسية، بما يُسهِّل المهمة، ويُهيّئ العقول والنفوس للخضوع والمتابعة والاستسلام.[17]

ث. تشوُّه الخطاب:

من التشوُّهات الخطيرة التي أضرَّت بالعقل والوجدان والنفسية المسلمة تشوُّه الخطاب الإسلامي في عهد الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة من عجز فكري، حوَّل فكر الممارسة والاجتهاد والتجديد والإبداع إلى فكر مدرسي نصي مغلق، فانعدم الاجتهاد في عصوره المتأخرة، وقام على التقليد، وانتهى بأنْ يصبح النص الضعيف عند بعضهم أَولى من الرأي، بالرغم من أنَّ الرأي الذي يُعتد به مستند –بالضرورة– إلى الاستحسان على أساس روح الشريعة؛ ما أثَّر سلباً في نوعية الخطاب، وأهدافه، والآثار المترتبة عليه في بناء العقل والوجدان والشخصية المسلمة.[18]

[16] شتا، إبراهيم الدسوقي. **الثورة الإيرانية: الجذور... الأيديولوجية**، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط2، 1988م، ص186.

[17] أبو سليمان، **انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية**، مرجع سابق، ص59.

[18] المرجع السابق، ص65.

ج. عقلية الشعوذة والخرافة:

إنَّ عقلية الشعوذة والخرافة –في معناها ودلالاتها الإنسانية والحضارية– تُمثِّل تشويهاً للعقلية السننية، وتدميراً لها يطال أبناء الأُمَّة. وإذا علمنا أنَّ أهم وجه من وجوه التحدي التي يتعرَّض لها أفراد الأُمَّة في هذا العصر هو تخلُّفهم العلمي والتقني، خلافاً لأعدائهم في هذا الميدان، أدركنا سبب تفوُّق هؤلاء الأعداء وإبداعهم في كل ميدان تصدّوا له ومارسوه؛ سواء كان ذلك الميدان هو السياسة، أو الاقتصاد، أو العمران، أو القدرة على تطوير سلاح المنازلة والحرب والقتال.

ويتعجَّب المؤلِّف من قدرة الشعوذة والخرافة على اختراق العقلية المسلمة التي تقوم رسالتها على التحفيز إلى اتباع السنن والعقل والدليل، فيقول: "إنَّ من العجيب حقّاً أنْ تنمو عقلية الخرافة والشعوذة في أُمَّة دِين الله ورسالة الحق ولدى أتباع محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، الذي لا تدع سيرة حياته وتصريف شؤون أُمَّته مجالاً لأيِّ شكٍّ في جدِّية أخذه بالأسباب وتدبير الأمور وتتبع الأسباب، وسعيه بالجد والاجتهاد في كل ما تصدّى له."[19]

ح. العرقية "دعوها فإنَّها منتنة":

العرقية هي تلوُّث عقدي اجتماعي ثقافي خطير، ينقض مبادئ الإسلام من جذورها، ويُشجِّع الردَّة إلى القبلية المنتنة التي حذَّر منها سيدنا محمد ﷺ. "إنَّ العرقية هي التجسيد القبيح لتشويه الرؤية الإسلامية وقيمها في شريعة النور الروحانية، حيث الوحدة والإخاء والتعاون والتكافل، وحيث للحقِّ –في مواجهة شريعة ظلمة الغاب الحيوانية بما تشتمل عليه من التمايز والتناقض والقسوة والافتراس– قوَّةٌ طاهرة صُلْبة مقاومة لقوَّة الأنياب والمخالب والعضلات."[20]

3. الاستعمار:

إذا كان الاستعمار –وما يزال– بسياساته وتدابيره وكيده وعدوانه، يُمثِّل أحد الأسباب التي أسهمت –وتُسهِم– في ما آل إليه العالَم الإسلامي من حال بائس، فإنَّنا

[19] المرجع السابق، ص70.

[20] المرجع السابق، ص93.

نعتقد أنَّ الاستعمار ونجاح سياساته العدوانية إنَّما يُمثِّلان أعراضاً مَرَضية مكَّنت لها تربة خاصة بأمراضٍ أخطر وأعمق، تكمن في صُلْب كيان الأُمَّة، بحيث تُحطِّم حصانتها، وتُمكِّن لسياسات الاستعمار منها. ولا يمكن التخلُّص من سياسات الاستعمار، وقدرته على تمزيق صفِّ الأُمَّة، وإلقاء العداوة بين صفواتها، وإثارة الحروب والصراعات بين دولها وشعوبها، إلّا بالقضاء على الأسباب الكامنة في كيان الأُمَّة، التي تُضعِف حصانتها، وتجعلها قابلة لنفاذ سياسات الاستعمار فيها، ومؤامراته عليها.[21]

4. ضعف البُعْد الجمعي في الثقافة والتربية:

من أسباب الأزمة أيضاً ضعف الجانب الجمعي في التربية والثقافة في شخصية المسلم. "ومع هذا الضعف فلا غرابة أنْ تنهار مؤسسات الأُمَّة العامة، وأنْ يتمزَّق نسيجها، وينهار بناؤها، وأنْ يصعب أداء الحقوق العامة ودفع الضرائب، وأنْ تشحَّ الأيدي بالتبرعات، والنفوس بالتضحية. ففي الوقت الذي يسعى فيه الفرد لكي يُوفِّر لنفسه ولأبنائه كل ما يستطيع من الحاجات والكماليات، فإنَّه لا يُلْقي بالاً إلى حاجة الأُمَّة، ولا إلى حاجة الفقراء والمعوزين، ولا إلى حاجة أبنائهم؛ لأنَّه يعلم أنَّه وحده ضمان نفسه وأهله لو ألـمَّت به وبأبنائه حاجة... ومن ثَمَّ فلا عجب أنْ نرى ظاهرة التسوُّل والفقر والجهل والهرب من أداء الحقوق وهكذا."[22]

بعد ذلك، يُؤكِّد أبو سليمان مركزية الخطاب النبوي في التربية، الذي يجب أنْ يكون أساس منطلقنا في التربية من السُّنة الفعلية، ومن سيرة حياته ﷺ، ومجمل توجيهاته، ومعالم شخصيته، وأساليب تعامله مع الناس من حوله.

ويسوق معالم عدَّة للمنهج النبوي في التربية، مثل:

- الحُبُّ والاقتناع والشجاعة: منطلقات الخطاب التربوي النبوي.[23]
- الحُبُّ قوَّة ودافع: تربة العلاقات المُؤثِّرة المُثمِرة.[24]

---

[21] المرجع السابق، ص115.

[22] المرجع السابق، ص127.

[23] المرجع السابق، ص183.

- الحرية قوَّة في حدودها وضوابطها.[25]

- جوهر النظام والانضباط: التعوُّد، وحسُّ الكرامة والمسؤولية.[26]

ثمَّ ينتقل أبو سليمان إلى الحديث عن الأسرة المسلمة ودورها التربوي في ما يخصُّ الطفولة الإسلامية، وتأهيلها الإلهي للقيام بدور العناية والرعاية للإنسان المستخلف في الكون. وفي ضوء ذلك، فإنَّه ينفي فكرة "الصراع" بوصفها مبدئية حاكمة في العلاقات الأسرية، ويحل محلها في الرؤية التوحيدية مبدئية التكامل في الأدوار والوظائف بين الرجل والمرأة؛ "فالتوافق والتكامل اللذان يُحقِّقان التعاون والرعاية والود والرحمة بين الأبوين -ذكراً وأنثى- هما الأساس الذي تبني عليه الأسرة الإنسانية، وإذا ما انتفت علاقة التكامل والتعاون والود والرحمة تحطمت أُسس علاقة الآباء بالأبناء... وعدم إدراك المبدأ الإسلامي في تكامل أفراد الجنس البشري عامة، وأدوار أعضاء الأسرة بشكل خاص يؤدي ذلك إلى عدم فهم بناء الأسرة المسلمة، وعدم إدراك أدوار كل عضو فيها. لذلك يخطئ مَن يملي التماثل في الأدوار على أطراف العلاقة الأسرية، لأنَّ ذلك منطلق خاطئ من ناحية الحقيقة الفطرية، وتشويه للوظيفة الأسرية، وجور على حاجات أطراف العلاقة وحقوقهم."[27]

وينتقد -في ضوء مبدأ "تقسيم العمل" داخل الأسرة- متابعة الأُمَّة للغرب في ما يتعلَّق بعمل المرأة، وهو الذي أثَّر سلباً في وظيفة الأمومة بوصفها الوظيفة الأصلية للمرأة. يقول في ذلك: "إنَّ إخراج المرأة إلى العمل بالشروط نفسها المطلوبة من الرجل، وبذات المتطلَّبات والترتيبات التي يتعامل بها الغرب مع المرأة، قد أدى إلى تفكُّك الأسرة، وإرهاق المرأة، والتفريط في عرضها، والمتاجرة بها، وتعريضها لكل ألوان الاستغلال والانحراف."[28]

ويدعو أبو سليمان المجتمع المسلم ومُفكِّريه وقادته أنْ يسألوا أنفسهم عن طبيعة دور الرجل والمرأة في الشريعة والمجتمع المسلم المعاصر، وكيف يُمكِن حماية خصوصيتها، وتحقيق

[24] المرجع السابق، ص184.
[25] المرجع السابق، ص185.
[26] المرجع السابق، ص189.
[27] المرجع السابق، ص201.
[28] المرجع السابق، ص209.

مقاصد الشريعة الإسلامية، جنباً إلى جنب مع تحقُّق الكفاءة، وتقصّي طاقات كلٍّ منهما على أفضل وجه ممكن في خدمة المجتمع، بما يُحقِّق مقاصده بأسلوب متوازن، ويُمكِّنه من الإفادة من طاقاته، ومواجهة تحدياته.

وفي نهاية الكتاب، يُنوِّه أبو سليمان بالحاجة إلى إعلان مبادئ منهجية وفكرية، يقوم على إعدادها وتخطيطها صفوةٌ من مُفكِّري الأُمَّة وعلمائها ومُثقَّفيها، ويتناول هذا البيان المجالات الأساسية في حياتها، وتُرسى فيه الأُسس، والمقاصد، والكليات، والمبادئ، والثوابت، والأولويات، والتحديات. ويكون هذا البيان أشبه بدليل العمل الذي يضع قواعد المنهجية، ويرسم الإطار، ويضيء -بكل اقتناع- سبيل التغيير والحركة والإصلاح في مجال المعرفة والثقافة والتربية والتعليم، ويسدُّ الطريق أمام سوء الفهم والضلال والتضليل.[29]

ختاماً، فإنَّ الكتاب يُمثِّل جرس إنذار، ويُعَدُّ توجيهاً أكاديمياً بحثياً وتربوياً وفكرياً للمُفكِّرين والباحثين في هذا المجال؛ بُغْية وضع الطفولة في بؤرة الاهتمام والعناية، وتشخيص الحالة القائمة للتعامل معها، وبناء منهجية راشدة تُسكِن الطفولة في مكانها من سُلَّم البناء التربوي للأُمَّة، وتبحث عن الأدوات الملائمة والوسائل المناسبة لتصميم خطة تربوية تعيد تأهيل الطفولة المسلمة. فضلاً عن حفز الأسرة إلى ممارسة دورها في بناء الطفولة، والتهيُّؤ والإعداد العلمي للقيام بهذا الدور، والاقتناع بضرورة الاطِّلاع على مساري الإعداد العلمي والنفسي الجديد: المسار التأصيلي؛ مسار النبوة والقدوة النفسية والاجتماعية، والمسار العلمي المُتعلِّق بالوسائل الجديدة وأدوات الإعداد التربوي الحديث اللازمة لتطوير مهارات الوالدين في سبر أغوار الطفولة، وامتلاك مهارات التربية، والتعامل الراشد معها في ضوء إدراك قيمة الطفل في بناء الأُمَّة الحضاري.

[29] المرجع السابق، ص260.